اللسانيات في الوطن العربي بين الرفض والقبول وموقف النظرية الخليلية منها

أوريدة عبود
جامعة مولود معمري- تيزي وزو
abboudourida@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2018/05/21 تاريخ القبول: 2018/11/19

الملخّــص

واجهـت اللسـانيات العربيـة الحديثـة صراعـا مـن مرجعيـات مختلفـة، منهـا مـا ينبـع مـن البحـث الفيلولوجـي، ومنهـا مـا يرتـد إلى التصـورات القديمـة التـي شـكلتها النظريـة اللغويـة القديمـة. وفي إتمـام هـذه التقاطعـات حـاول البحـث اللسـاني العـربي أن يبنـي لنفسـه هيـكلا مسـتقلا يصـف مـن خلالـه اللغـة العربيـة معتمـدا عـلى الأصـول النظريـة مـع مراعـاة مـا يتطلبـه الواقـع اللغـوي.

الكلمات المفاتيح:

اللغة - اللسانيات - الرفض - القبول - النظرية الخليلية.

المؤلف المراسل: أوريدة عبود، البريد الالكتروني: abboudourida@yahoo.fr

La linguistique dans le monde arabe entre rejet et acceptation Et la position de la théorie Néo-khalilienne

Résumé

La linguistique arabe moderne a rencontré un conflit de diverses références, y compris la recherche théologique, et les anciennes perceptions de la théorie linguistique. En complétant ces intersections, la recherche linguistique arabe a tenté de construire une structure indépendante dans laquelle l'Arabe est décrit, en tenant compte de ce qui est requis par la réalité linguistique.

Mots clés:

Langue - linguistique - rejet - acceptation - théorie Néo-khalilienne.

Linguistic in the Arab world between rejection and acceptance And the position of Neo-Khalilian theory

Abstract

Modern Arabic linguistics has encountered a conflict of various references, including the philosophical research, and the old perceptions of the classic linguistic theory. In the completion of these intersections, the Arabic linguistic research attempts to construct an independent structure in which Arabic is described as based on theoretical origins taking into account what is required by the linguistic reality.

Keywords:

Language - linguistics - rejection - acceptance - Neo-khalilienne theory.

مقدمة

إن الحديث عن البدايات الأولى لانتقال الفكر اللغوي الحديث يؤدي بنا حتما إلى الحديث عن جهود روادها الأوائل أمثال عبد الرحمان الحاج صالح، وتمام حسان، وعبد القادر الفاسي الفهري، وعبد القادر المهيري، وحلمي خليل وإبراهيم أنيس، وكمال بشر، وأنيس فريحة، وأحمد مختار عمر، الذين قدموا للمكتبة العربية الكثير من الدراسات التطبيقية والنظرية في اللسانيات الحديثة تتفاوت قيمتها بدرجة من استيعاب الكاتب للمفاهيم والمبادئ اللسانية الغربية. إلا أنه لا يمكننا القول بأن اللسانيات قد فهمت فهما صحيحا ودقيقا، بفضل هذه الدارسات بل يمكن أن نذهب بعيدا، إلى حد اعتبار أن بعض الدراسات اللسانية قد أثّرت سلبا في المتلقي العربي -طالبا وباحثا ومثقفا- وفي مسيرة اللسانيات بصفة عامة فيبقى هذا العلم يثير في ذهن الباحث العربي ريبا، وسوء ظن أكثر منه فضولا إلى استكناهه، مما أثر في تقدم الأبحاث اللغوية في العالم العربي، وخلق نوعا من الصراع المحفوف بالجمود والتقوقع على الذات أو الآخر. لهذا يطرح بحثنا جملة من الأسئلة الجوهرية هي:

- كيف تلقى القارئ العربي الدرس اللساني الحديث؟
- ما هي المشاكل التى عاناه الدرس اللساني العربي في إرهاصاته الأولى؟
- ما هي المراحل التي مرت بها اللسانيات الحديثة في الوطن العربي وما مميزاتها؟
- ما موقف العلامة "عبد الرحمان الحاج صالح" من التيار اللساني الغربي؟ بمعنى أين تتموضع النظرية الخليلية الحديثة ؟ و ماهي أسسها؟

1. اللسانيات في الوطن العربي: مراحلها ومميزاتها

بعد مرور نصف قرن من طرح الرؤى اللسانية على المثقفين في العالم العربي لم تخرج من دائرة الجدل في فهم اللسانيات وطرحها، ذلك أن جهود الباحثين في تقديمها وطرحها تراوحت بين ثلاث مراحل متداخلة فكريا، وزمنيا ومكانيا،

وفي درجة التقبل لها من قبل الملتقي العربي، وطريقة طرحها، من قبل الباحث اللساني.

أ-مرحلة الرفض المطلق: فلسفة الاتهام

يقابل الجديد دائما بالرفض خصوصا إذا كان يخالف معرفة ثقافية لها مكانة راقية في أذهان البشر، فاللسانيات الحديثة لم تلق ترحيبا في البداية خصوصا من قبل النحويين المتعصبين للنحو العربي، وهذا الرفض يعود لعدة أسباب ومسوغات تسببت في إعاقة تلقي هذا العلم بطريقة إيجابية، خاصة أن اللسانيات التي حملها الرواد العرب القادمون من البلدان الأوروبية، بعدما تلقوا تكوينهم على أيدي أساتذة، أمثال "تشومسكي" و"ياكبسون" و"مارتيني" و"وفيرث"، لم يطرحوها بطريقة صحيحة ملائمة للوضع الذي كانت البلدان العربية تعيشه، فقد انطلق الكثير من اللسانيين العرب في دراستهم من نقد التراث اللغوي عامة والنحوي خاصة. وأهم دراستين يجب أن نذكرهما هما: كتاب (اللغة بين المعيارية والوصفية لتمام حسان) الذي أعاب على النحويين القياس واعتبره ميزة من ميزات المتكلم فقط، منتقدا اختيار النحاة لزمن ومكان معينين (يُنظر: تمام، 2000، ص 43) وكتاب (دراسات نقدية في النحو العربي لعبد الرحمان أيوب)، هذا الذي جاء بمثابة ثورة حاولت هدم جميع الأسس والمبادئ التي يؤمن بها كل باحث عربي في اللغة، فكأنه يقول: "إن هذا الإرث الحضاري الذي أتى العرب على جمعه وتمحيصه ثم دراسته وتنظيمه حتى عدت علومهم في اللغة مضرب الاكتمال - غير سليم في أسسه ومبادئه، و يجب علينا الاستغناء عنه واستبداله باللسانيات الغربية" (يُنظر: المسدي، 1997، ص 13-12). متناسيا صفة القداسة التي يملكها الباحث اللغوي اتجاه لغته العربية ونحوها العتيد.

ويعتبر عبد الرحمان أيوب من الأوائل الذين تبنوا فكرة تأثر النحو العربي بأصول المنطق الأرسطي، وقد ردّ عبد الرحمان الحاج صالح على هذه الفكرة بقوله: "إن النحو العربي لم يتأثر في ابتداء نشأته بمنطق أرسطو، لا في مناهج بحثه

ولا في مضمونه التحليلي، فإنه لا يدين بشيء أصلا فيما ابتناه أول أمره للثقافة اليونانية" (الحاج صالح، 2007، ص 63). لعل هذا الطرح العنيف للسانيات من قبل اللسانيين العرب جاء تقليدا ومحاكاة لطرح أساتذتهم الغربيين، ظنا منهم أن الوضعية مشابهة للتي في أوروبا.

تسرع اللسانيون عندما شرعوا بالدراسات التطبيقية قبل التمهيد لها بدراسات نظرية، ومثال هذا ما سقناه قبل قليل، وهو (كتاب اللغة العربية معناها ومبناها) الذي جاء في مرحلة متقدمة جدا، كان يجب أن تسبقه عشرات المؤلفات التمهيدية والنظرية، لكي نتحول إلى مستوى التطبيق. لقد جاءت الدراسات الأولى مقدمة للقارئ لا للباحث المتخصص، وقد كان حريا على اللسانيين الأوائل أن يقدموا كتبهم للمتخصصين أمثالهم، ثم بعد ذلك ينتقلون للقارئ المثقف بصفة عامة.

إن المتأمل في كتب اللسانيات سيجد أن معظم الكتب تحمل عنوان مدخل أو محاضرات أو مقدمة للقارئ العربي، كما هو عنوان كتاب علم اللغة مقدمة للقارئ العربي لصاحبه محمود السعران، وإن لم توجد ملامح في عنوان الكتاب بأنه موجه إلى المثقفين وجد في طيات مقدمته. أما التهامي الراجي الهاشمي يقول في مقدمة كتابه (توطئة لدراسة علم اللغة -التعاريف-)، يقول: "أقدم للقارئ العربي هذا المؤلف الذي يفتح سلسلة من الدراسات اللغوية" (الرّاجي الهاشمي، 1984، ص5) فهو يوجه الكتاب بالتحديد الى المثقفين لا المتخصصين والمنطق أن يوجه العلم الى المتخصصين، ثم بعد ذلك إلى المثقفين.

لقد أثرت عقلية الرفض المطلق لكل ما هو غربي -بسبب الصورة التي ترسخت في متخيل المتلقي العربي عن الغرب- وما تولد عنها من ردود فعل متشنجة زكت حضور بعض الأعراف اللغوية المترسخة في الثقافة العربية، في مقابل عقلية التباهي بالمنتوج الثقافي المتكامل من جميع النواحي.

كان هناك اعتقاد راسخ بأن اللسانيات: "علم انبثق عن الحوض المعرفي الغربي، ومنه لا يمكننا -نحن العرب- معرفة هذا العلم الجديد إلا من خلال نافذة اللغات

الأجنبيـة الانكليزيـة أو الفرنسـية ذلـك أنـه لا يمكننـا إلا أن نعـترف بـأن اللسـانيات الحديثـة هـي محـض العقليـة الغربيـة التـي أنتجتهـا" (الوعـر، 1989، ص 379). وعـلى هـذا الأسـاس فـإن البحـث اللسـاني لا يمـت بصلـة إلى اللغـة والثقافـة العربيـة واللغـة العربيـة: "لأنـه بحـث أوجدتـه ظـروف اللغـات الأوروبيـة التـي تختلـف في انتماءاتهـا وتكوينهـا وبيئاتهـا وشـعوبها المتكلمـة بهـا وتاريخهـا عـن العربيـة وظروفهـا، اختلافـا كبـيرا يجعلنـا في موقـف رافـض لـكل مـا يـراد مـن الباحثـين المعاصريـن العـرب أن يسـلكوه أو يتعاملـوا بـه مـع العربيـة" (العبيـدي، 2000، ص 31). ولهذا كانت اللسـانيات معنيـة بشـكل مبـاشر بهـذا الـصراع وبهـذه المقاومـة، فـكان مـن الطبيعـي أن تقـاوم مقاومـة أشرس. فقـد اعتـبرت شـكلا مـن أشـكال الامبرياليـة العالميـة، لأنهـا تسـعى جاهـدة إلى تشـجيع كل صـوت يـضرب عـلى وتـر الانسـلاخ عـن اللغـة العربيـة الواحـدة، والثقافـة العربيـة الأصيلـة بشـتى الأشـكال الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والثقافيـة والعلميـة (اللسـانية) (يُنظـر: الوعـر، 1989، ص 379).

إضافـة إلى ذلـك، كانـت دعـوة اللسـانيات إلى الاهتـمام باللهجـات أثـر كبـير في تعميـق الخـلاف المحتـدم، فقـد ربـط محمـد حسـن بـين دراسـات الصوتيـات وأبعـاد اسـتعمارية، بقولـه: "اقترنـت الدراسـات اللغويـة الحديثـة عـلى4 - الصوتيـة منهـا بنـوع خـاص - بالدعـوة إلى العنايـة باللهجـات العاميـة وآدابهـا، أو مـا يسـمونه "الأدب الشـعبي"، والدعـوة بشـكلها هـذا جديـدة عـلى الدراسـات العربيـة، لم يسـمع لـداع بهـا صـوت قبـل القـرن الأخـير، وقـد نشـأت أول مـا نشـأت باقـتراح بعـض المسـتشرقين مـن رجـال الاسـتعمار" (حسـين، 1986، ص 48). كـما رفـض مصطفـى حـركات الصوتيـات الفيزيائيـة لأسـباب غـير مشـابهة (يُنظـر: حـركات، 1998، ص 13). فقـد كان هنـاك اعتقـاد راسـخ بـأن الحفـاظ عـلى اللغـة العربيـة لا يمكـن أن يكـون إلا بإبعادهـا عـن مناهـج اللسـانيات الحديثـة التـي تتسـم بالتناحـر والتناقـض.

إن اللغـة العربيـة، مـع مـا وصـل إلينـا مـن دراسـات في اللسـان العـربي: "وقوامـة هـذه الدراسـات، وإيفائهـا بمـا يحتاجـه البحـث المعـاصر من معرفـة ، وفهـم وإدراك

لما كانت عليه، وما آلت إليه الدراسات اللغوية الحديثة - ولا سيما الأوروبية - ينبغي لها أن تكون بمنأى عن أن يقحمها الباحثون العرب في تلك المآزق والمجاهل التي لا تخرج منها إلا بتناحرات وتناقضات مذهبية، ليست العربية بحاجة إليها، فكيان العربية وشخصيتها، وأصولها، وضوابطها، ونصوصها الأصلية، وآثارها الواصلة إلينا، قد اكتسبت درجة الاكتفاء الذاتي، وحملت معها عناصر بقائها وديمومتها واستمرار قوتها، وسر حيويتها وحركاتها وإنعاشها، ببقاء كتاب الله العزيز، وبهذا التراث العظيم الواصل إلى أبنائها مدونا ومحفوظا ومدروسا، يستمد منه أبناؤها ما هم بحاجة إليه من التغذية والتوعية والتثقيف" (العبيدي، 2000، ص 25).

ويؤكد منذر عياشي: "إن البحث اللغوي العربي وجد نفسه تبعا لعدد من الممارسات الاستشراقية، التي أرادت فرض سيطرتها عليه، والانحراف به عن النهج العلمي، بغية التشكيك في الجدوى التاريخية للإنتاج المعرفي في الحضارة العربية الإسلامية. كما وجد نفسه أيضا تبعا لعدد كبير من النظريات والمناهج والمدارس الغربية. وذلك لأنه لا يملك نظرية خاصة به مستوحاة من الحضارة التي يريد أن ينطق باسمها" (عياشي، 1991، ص 11).

يضيف منذر عياشي سببا آخرعرقل دخول اللسانيات إلى الثقافة العربية يذكرها في قوله: "أما البعثات التبشيرية فقد تجلى دورها في الإلحاح على قطع صلة الشعوب المستعمرة بماضيها الحضاري، وأما حركة الاستشراق، فقد سعت حثيثا لتحريف وتشويه تاريخ الفكر العربي والتشكيك فيه، كما أنها ركزت جهودا جبارة للتقليل من أهمية اللغة العربية ودورها الحضاري حتى بدت في عيون بعض (المثقفين) العرب لغة ميتة لا علاقة لها بالعصر الحاضر، ولا تفي بحاجات التطور العلمي" (عياشي، 1991، ص 33)، وقد دعم هذه الفكرة الاهتمام الزائد باللهجات من قبل الباحثين اللسانيين إلى درجة توظيفها خارج نطاقها العلمي البحت: "فليس من شك في قيمة علم اللهجات من الناحية العلمية وليس من شك كذلك في أمانة بعض أعلام الاستشراف عندنا الذين نهضوا بهذا العلم ونشطوا لترويجه، ولكن

لا مهرب لنا من الإقرار موضوعيا بأن بعضه قد عمل على ازدهار علم اللهجات العربية بباعث إما سياسي غايته استعمارية، وإما مذهبي يرمي إلى البعد الديني والوزن الروحي، وإما يرمي إلى نقض التركيب العربي في المجتمع انطلاقا من دك بنيته الفكرية" (المسدي، 1979، ص 16).

يمكن أن نعتبر أن كل عمل يهدف إلى دراسة لهجة معينة عملا ذا أبعاد غير علمية، فقد "كان منهم العالم النزيه وكان بعضهم ممتثلا للوصاية المحركة، وفيهم من كان مؤمنا غرا" (المسدي، 1997، ص 16).

ويعتقد أحد الباحثين علاقة صريحة بين العناية باللهجات وبين الأطماع الاستعمارية بقوله: "ولكن لما ظهرت ملامح أطماع الأوروبيين في استعمار العالم العربي، والبحث عن كل الوسائل والأساليب التي تسهل له التسلل بين الجماهير العربية، تبينت لهم ضرورة الاهتمام باللهجات العربية العامية وتعليمها، فأدخلوا تدريس العربية في مدارسهم وجامعاتهم مستعينين في ذلك ببعض العرب، الذين كانوا يعملون في بلادهم أو يزورونها من حين لآخر والمستشرقين الذين كانت لهم معرفة دقيقة باللهجات العربية، وكان هدفهم تعريف القناصل والمبشرين والجواسيس الأوروبيين المرسلين إلى البلاد العربية" (بوخلخال، 1994، ص 165-166) هو يقصد ويخص المستشرقين هؤلاء اللسانيين الذين ظلوا يدعون لمدة طويلة إلى ضرورة دراسة اللهجات العامية.

ومن جهة أخرى، يقول إبراهيم أنيس في كتابه "في اللهجات العربية": "إن دراسة اللهجات العربية قد نمت في بلادنا وازدهرت، وأصبحت الكليات الجامعية تعنى بها كل العناية، بل خصصت لها أقسام مستقلة في بعض الكليات ونوقشت بعض الرسائل الجامعية التي عرضت لهذه الدراسة... نحن في أمس الحاجة إلى دراسة اللهجات العربية الحديثة، فتلك التي نفتقدها أو نزال نتطلع إليها" (أنيس، 2003، ص 5).

وهذا دليل عقدة البحث في اللهجات بدأت تنحل، خصوصا ما يتعلق باللهجات

الفصحى فقط. لكن رغم هذه الدراسات التي يقوم بها إبراهيم أنيس يبقى التوجس قائما وهذا ما يعبر عنه محمد حسين الأعرجي بقوله: "علينا أن نفرق بين مدرستين في الاستشراق مدرسة أوروبا الغربية، ومدرسة أوروبا الشرقية، إذ نجد أن المدرسة الغربية لا تخلو من أهداف استعمارية، بقيت عالقة بها إلى اليوم ولكن بلبوس آخر يسمى لسانيات تركز على دراسة اللهجات المحلية، وبنوية تنتهي إلى قتل حاسة تذوق الجمال الأدبي حينا أخر" (الأعرجي، 2001، ص17).

ساق لنا عبد السلام المسدي معيقا آخر بخصوص اللسانيات الحديثة في الوطن العربي يتمثل في لغة البحث اللساني العربي وهذه معضلة جوهرية فكثير من البحاثة العرب في حقول اللسانيات يعمدون عن وعي واختيار إلى الكتابة بلغة أجنبية، وتكاد هذه الظاهرة أن تكون عامة سواء من خطت بلاده في مدارج التعريب أو من كان بلده قد تخلص من الازدواج اللساني منذ خلاصة الاستعمار. (يُنظر: المسدي، 1997، ص 17). اعتبر محمد عابد الجابري اللسانيات أنها تدخل في دائرة المعارف الحديثة، ولهذا لم تسلم من دائرة الصراع بين القدامى والحداثة، أو بالأحرى ما يعبر عنه بالأصالة والمعاصرة، فهو يعتبرها قضية الفكر العربي الأولى في العصر الحديث (يُنظر: الجابري، 1982، ص 34).

قضية توزعت بين لساني يطرح الرؤى اللسانية الحديثة وبين متلق يحتاج إلى تبسيطيها واستيعابها إلا أن هذه المرحلة تقوم على مبدأ الرفض المطلق وفلسفة الاتهام.

ب- مرحلة القبول النسبي: حوار مفتوح بين التراث واللسانيات

تتميز هذه المرحلة بعودة الحوار بين التراث النحوي واللسانيات الحديثة العربية، وبين اللسانيين أنفسهم، ولعل أهم اللسانيين الذين حققوا هذا الحوار اللساني الجزائري "عبد الرحمان الحاج صالح" في كتاباته اللسانية التي تتسم بإبراز السمات الإيجابية في التراث وعلى إمكانية استثمار بعض المبادئ والأوليات الإجرائية النحوية التراثية في تطوير اللغة العربية خصوصا في مجال التكنولوجيا والحاسوب

وضرورة اعتماد نظرية لغوية تستنبط من اللغة العربية لا من لغات أخرى غير العربية. (يُنظر: الحاج صالح، 2007، ص 80).

كما كانت أعمال تمام حسان في الطور الثاني منها وبدأ مراجعة آرائه الأولى التي كان يشوبها نوع من التطرف، وتظهر هذه المراجعة في استغنائه عن مشروع الرموز اللغوية المستمدة من اللاتينية التي كان يرى فيها البديل الحقيقي للرموز العربية التي اعتبرها قاصرة قصورا عظيما لا تصلح لدراسة اللغة العربية الفصحى ولهجاتها العامية (يُنظر: تمام، 1990، ص 7)، إلا انه استغنى عن هذه الفكرة في كتابه (اللغة بين المعيارية والوصفية) (يُنظر: تمام، 1994، ص 10) كما تظهر مراجعات وتصويبات أخرى في الطبعات الجديدة من كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها).

تراجع "تمام حسان" كذلك في بعض مؤلفاته عن فكرة أن منهج النحاة العرب كان في بدايتها الأولى معياريا تعليميا (يُنظر: تمام، 2007، ص 13) إلى القول في كتابه اللغة بين المعيارية والوصفية: "كانت دراسة اللغة تدور في مبدأ الأمر على تلقي النصوص من أفواه الرواة ومشافهة الأعراب، وفصحاء الحضارة، فكان ثمة مجال للاستقراء واستنباط القاعدة من تقصي السلوك والمفردات والأمثلة، ومن ثم رأينا دراسات عربية أولى تتسم بالوصف وتنأى إلى حد كبير عن المعيار" (تمام، 1949، ص 44).

فاز تمام حسان في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) بجائزة أفضل عمل علمي لساني يجمع بين اللسانيات الغربية والتراث النحوي العربي، وقد مثلت هذه الجائزة تحفيزا لكثير من اللسانيين على الجمع بين التراث وأعمال الغرب بحكم أن هذا الكتاب في طباعته المتأخرة يمثل البداية الحقيقية في تقبل الخطاب اللساني الغربي في الثقافة العربية، ولا سيما في بحث إلغاء الإعراب التقديري والمحلي، ونقد نظرية العامل مستندا في هذا البحث على أساسين هما:

1- أساس لساني غربي يتمثل في مبادئ بنوية ترفض التأويلات والتعليلات ولا تعترف إلا بموقع الوحدات اللغوية داخل الترتيب.

2- أساس نحوي تراثي استند إلى دعوات الاتجاه الظاهري المتمثل في أراء ابن مضاء القرطبي الذي كان أول من دعا إلى القول بإلغاء العامل في النحو (يُنظر: القرطبي، 1979، ص 12).

يأتي شوقي ضيف بعد ذلك بكتابه (تجديد النحو) بعد تحقيقه لكتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي، مبديا رغبته في عرض النحو عرضا جديدا، على أسس قوية تصفيه وتروقه وتجعله داني القطوف للناشئة معتمدا على أسس ظاهرية استمدها من اطلاعه الكبير على التراث النحوي الظاهري، ممثلا في أعمال ابن حيان الأندلسي وابن حزم الأندلسي ولكنه تأثر أكثر بابن مضاء القرطبي، وقد أسس تجديده النحوي على ستة أسس هي: (يُنظر: 2003، ص 3-8).

أ- إعادة تنسيق أبواب النحو.

ب- إلغاء الإعرابيين: التقديري والمحلي.

1- إلغاء تقدير متعلق للظرف والجار والمجرور.

2- إلغاء عمل أن المصدرية في المضارع مقدرة.

3- إلغاء العملات الفرعية في الإعراب.

ج- الإعراب لصحة النطق.

د- وضع ضوابط وتعريفات دقيقة.

هـ- حذف زوائد كثيرة.

و- إضافات متنوعة.

يعتبر كثير من اللسانيين العرب أن الدراسة اللسانية الحديثة أساس متين من أجل البرهنة على علمية التراث وصحته وملائمته للنهوض باللغة العربية في الوقت الراهن، ومحاورته في إطار نظري واضح متناسق.

ج- مرحلة القبول المطلق

تعتبر هذه المرحلة كمرحلة زمنية مرت بها اللسانيات في الوطن العربي ولا تزال تمر بها، كما تعتبر تيارا أو اتجاها لسانيا في مقاربة اللغة العربية، تعتمد على طرح

جديد وإماتة التراث والاستغناء عنه اعتمادا على المنطلقات الغربية وخصوصا التجريبية، البنوية، التوليدية، والتحويلية.

لم يسلم أنصار هذه المرحلة من تُهَم الانسلاخ عن الحضارة العربيّة الإسلاميّة، بل رأى البعض الآخر خطراً يهدد ثابتاً هو أهم الثوابت في حياة المسلمين، وهو القرآن الكريم، فلغة القرآن محروسة بقوانين العربيّة في النحو والصرف والمعجم، وقد أثبتت هذه القوانين عبر قرون الإسلام كلّها قدرتَها على رفد الكلمة القرآنية في دلالتها واستقامتها وموقعها من التركيب بالتفسير المقبول، ويمكن للمتتبع لحركة تقييم الجهود اللغويّة في القرن العشرين أن يلحظ بوضوح أن معظم من وجّهت إليهم تهم معاداة اللغة العربيّة في الإملاء أو النحو أو الأصوات هم من اللسانيين لأنهم وقعوا في منعطف القبول المطلق بالمقولات اللسانيّة مع أنّ من طبيعة اللسانيات أنها علم متغيّر غير ثابت.

يمثل هذا القبول انبهارا بالنتائج الإيجابية التي حققتها اللسانيات في مجال الصوتيات في أعمال كمال بشر وإبراهيم أنيس فقد كانت النتائج التي توصلوا إليها -بفضل المنهج التجريبي.

يمكن أن نستنتج من خلال هذه المراحل ثلاثة تيارات وهي:

1. التيار اللساني المتعصب للمفاهيم الغربية.

2. التيار النحوي المتعصب للتراث اللغوي العربي.

3. التيار الجامع للمفاهيم اللسانية الغربية والتراث النحوي ونقصد هنا اللسانيات الخليلية أو ما يسمى بالنظرية الخليلية. فما موقف هذه النظرية من اللسانيات الحديثة؟

2. عبد الرحمان الحاج صالح ونظريته الخليلية: قراءة واعية للفكر اللغوي العربي

تعتمد النظرية الخليلية باعتبارها مدرسة أصيلة على الفكر اللغوي العربي، دون تعصب ولا تبعية لآي جانب منه وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى "الخليل ابن حمد الفراهيدي" ويتزعم هذه المدرسة اللساني "عبد الرحمن الحاج صالح" الذي

تجمع ثقافته بين الخلفية التراثية والمبادئ اللسانية الغربية.

ينطلق "عبد الرحمان الحاج صالح" من قراءة واعية رصينة للفكر اللغوي، والآراء التي جاء بها "الخليل بن أحمد الفراهيدي" في كتبه بخاصة التراث النحوي للعلماء الأوائل بعامة، فيقصى إلى حد بعيد من نظريته مجهودات النحاة المتأخرين كونهم كانوا معياريين مقلدين غير مبدعين.

يعمد أيضا عبد الرحمان الحاج صالح إلى الفهم الدقيق لأراء الخليل، ومقارنتها بالآراء اللسانية ليس لاستخراج أو الوقوف فقط على أوجه الشبه والخلاف، بل ليؤسس لمفاهيم ومبادئ خاصة به يمكن استعمالها في مقاربة الظاهرة اللغوية، وفي الميادين التطبيقية، كالعلاج الآلي للنصوص وتركيب الكلام الاصطناعي وغير ذلك (يُنظر: الحاج صالح، 2007، ص 209).

يؤكد "عبد الرحمان الحاج صالح" عن قراءته للتراث الخليلي: "إن هذه المدرسة نتجت عن جهود متواصلة، وقد بدأت التفكير فيها وأنا طالب في الجامعة الأزهرية، وبخاصة في كلية اللغة العربية، مقارنة بين ما اطلعت عليه في كتاب سيبويه على ذلك من أقوال الخليل وما قرأته، وكنت أقرأ على شيوخنا في الجامعة العتيقة، فلاحظت الفروق الكثيرة التي توجد بين ما ذهب إليه الخليل وشيوخه وتلامذته وخاصة سيبويه، وبين ما يقوله المتأخرون من النحاة ، بل لاحظت فرقا كبيرا، لا في النزعة العلمية، ولا في مناهج التحليل وفي الاتجاه العلمي فقط، بل في كل شيء ذكروه، وأخص بالذكر، المتأخرين، هذا الرجل الذي صار ما أنتجه من الكتب ومن الأعمال، كأنه قرآن النحو، وهو ابن مالك ، وهو من المتأخرين وألفيته المشهورة والشروح الكثيرة التي ذاعت ذيوعا كبيرا، وربما كان هذا الذيوع وهذه العناية بشروح الألفية، هي التي أدت إلى تقليص الفكر العربي اللغوي في عصرنا الحاضر، والاكتفاء بما يقوله المتأخرون وقد غطى ذلك، وصار حجابا على المتقدمين (يُنظر: الحاج صالح، 2007، ص 208).

لا يرمي عبد الرحمان الحاج صالح إلى إحياء المبادئ الصالحة من كتب الخليل

وسيبويه، وإنما يريد أن يحي نحو المتقدمين عن طريق فصله عن نحو المتأخرين في عدة مسائل، ومن هذه المسائل نذكر على سبيل المثال، مسألة علاقة النحو العربي بالمنطق، فقد جعل الحاج صالح المنطق مرتبطا بنحو المتأخرين، كون ابن السراج ينتمي إليهم، فنفى تأثير المنطق اليوناني في نحو الأوائل وسيبويه، كما أنه يدعو في جميع أبحاثه وأعماله إلى وجوب عودة الباحث اللساني إلى أعمال الأوائل وعدم الاكتفاء بأعمال المتأخرين لأنها حسبه، مظللة ولا يمكن الانطلاق من خلالها إلى استخراج مبادئ تلائم متطلبات الظاهرة اللغوية في العصر الحالي.

تتأسس النظرية الخليلية على عدة مفاهيم ومبادئ لتحليل اللغة نذكر منها:

ا-اللسان وضع واستعمال.

ب-مفهوم الاستقامة.

ج-مفهوم الانفصال والابتداء.

د-مفهوم المثال.

هـ-مفهوم الموضع والعلامة العدمية.

و-مفهوم العامل.

ي-مفهوم القياس.

ن - مفهوم الأصل والفرع (يُنظر: الحاج صالح، 2007، ص217).

لقد وقفت النظرية الخليلية بهذه المبادئ، موقفا متوسطا بين اللسانيات الحديثة وبين النحو العربي فتنهل من مبادئ المدارس اللسانية، كالوظيفية والتوليدية التحويلية، والتوزيعية وتتخير مبادئ التراث النحوي عند العلماء والنحويين الأوائل. يؤكد ذلك عبد الرحمان الحاج صالح عن مكانة المدرسة من النزعات المختلفة: "تتوسط هذه النزعة في اعتقادنا بين اتجاهين: اتجاه يتجاهل تماما والى حد بعيد اللسانيات الحديثة، ويعتمد أساسا على المفاهيم اللغوية التي تبلورت عند المتأخرين... فيخلط هؤلاء بين المفاهيم العربية الأصلية ومفاهيم هؤلاء المتأخرين، واتجاه آخر يتجاهل تماما أو إلى حد ما التراث العربي أو يجعل، مثل الاتجاه

السابق ،كل التراث واحدا" (يُنظر: الحاج صالح، 2007، ص 227-228) فيلجئون إلى اللسانيات الغربية بكل ما تحمله من عيوب ونقائص.

سعت النظرية الخليلية منذ ظهورها إلى بعث الجديد عبر إحياء المكتسب فتجاوزت بذلك مرحلة الاقتباس السلبي عند نقلها عن الغرب، أو عند نشرها عن العرب، وبنت قراءتها للتراث وتأصيل أفكاره علميا، بعيدا عن العاطفة. كما تعلقت النظرية الخليلية الحديثة للعلامة "عبد الرحمن الحاج صالح" بالتراث العلمي اللغوي الأصيل الذي خلفه أولئك العلماء العرب المبدعون الذين عايشوا الفصاحة اللغوية الأولى، وشافهوا فصحاء العرب، وجمعوا اللغة، ودونوها خدمة للنص القرآني المقدس الذي كان يحتاج إلى الفهم، والتفسير، والتعليل في ضوء اللغة العربية النقية.

خاتمة

إنّ أزمة اللسانيات في الثقافة العربيّة أزمة منهج في العرض والتطبيق والحوار مع الموروث العربيّ في علوم اللغة والأدب، فقبل أن تتجذر الثقافة اللسانيّة في المجتمع العربيّ كان بعض رواد اللسانيات في العالم العربيّ يوجّهون سهام نقدهم إلى النحو العربيّ، والصرف العربيّ، والمعجم العربي باسم اللسانيات، فثار معظمهم على نظرية العامل والعلل والإعلال والإبدال والصناعة المعجمية التقليديّة.

تقوم النظرية الخليلية الحديثة للعلامة "عبد الرحمن الحاج صالح" على تعريف الدارسين بخصائص علوم اللسان العربي، ومضامينه النوعية انطلاقا من مقولات اللسانيات الحديثة، وقد أثبتت هذه النظرية أهمية قراءة التراث العربي الذي يمثل مستخلصات ثمانية قرون أو تزيد من مخاض التفكير اللغوي عند العرب في ضوء النظريات اللسانية الحديثة، وهذا يعني أن المفاهيم النظرية الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة اتجهت إلى إعادة قراءة التراث اللغوي العربي الأصيل، والبحث في خفاياه، ليس انتصارا للقديم، ولا هدما للحديث في ذاته، ولكن بغية التنبيه إلى الطفرة التلقائية المفاجئة التي أحدثها "سيبويه"، وشيوخه، وتلاميذه في

تاريخ علوم اللسان البشري بعد أن تحامل عليهم كثير من الدارسين المحدثين الذي تأثروا بالمناهج الغربية الحديثة، ونظروا إلى النحو والصرف العربيين بمنظار قاصر بدعوى أنهما "معياريان"، وأنهما بعيدان عن التصور العلمي للغة.

جمعت النظرية الخليلية بين المناهج اللغوية الحديثة ونظرية النحو العربي، مكونة في ذلك نظرية متماسكة قديمة في أصولها، حديثة في منهجها وتوجيهها العلمي، لها مفاهيمها العلمية التي تكوّن كفايتها العلمية ومبادئها الأساسية، التي تكوّن كفايتها التطبيقية والتعليمية.

لقد صدق «عبد الرحمان الحاج صالح» عندما أكدّ في إحدى محاضراته قائلا: **«لست محافظا ولا مجددا، ولكن أبحث عن المفيد. اكتشفنا في القديم شيئا عظيما لم نجده في الحديث، ولو اكتشفناه في الحديث لأخذنا به».**

قائمة المصادر والمراجع

- أنيس، إبراهيم.(2003). في اللهجات العربية. ط3. مكتبة الأنجلو مصرية. القاهرة. مصر.
- تمام، حسان.(2000). اللغة بين المعيارية والوصفية. ط4. عالم الكتاب. القاهرة. مصر.
- تمام، حسان.(2007). اجتهادات لغوية. ط1.عالم الكتاب. القاهرة. مصر.
- بوخلخال، عبد الله.(1994). "الدعوة إلى العامية، أصولها أهدافها". مجلة الآداب. العدد1. ص 165 إلى 181.
- الجابري، محمد عابد.(1982). الخطاب العربي المعاصر، د.ط. دار الطليعة. بيروت. لبنان.
- الراجي، الهاشمي التهامي.(1984) توطئة لدراسة علم اللغة -التعاريف- ط2، دار الشؤون الثقافية. بغداد. العراق.
- الحاج صالح، عبد الرحمان.(2007). بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الجزء1. د.ط. دار موفم. الجزائر.
- حركات، مصطفى.(1998). اللسانيات العامة وقضايا العربية، دار الحداثة بيروت. لبنان.
- حسين، محمد.(1986). مقالات في الأدب واللغة. ط1. مؤسسة الرسالة بيروت. لبنان.
- العبيدي، رشيد عبد الرحمان. (2000). "الألسنية المعاصرة والعربية"، مجلة الذخائر. العدد الأول. السنة الأولى. ص 28 إلى 39.
- ضيف، شوقي. (2003). تجديد النحو، ط5. دار المعارف. القاهرة. مصر.
- القرطبي، ابن مضاء. (1979). الرد على النحاة. ط1. تحقيق محمد إبراهيم البنا. دار الاعتصام. القاهرة. مصر.
- حسين، محمد. (1999). "أهداف الاستشراق ما لها وما عليها". مجلة المدى.

- العدد1. ص 48 إلى 68.
- منـذر، عيـاشي.(1991). قضايـا لسـانية وحضاريـة، ط1. دار طـلاس للدراسـات والترجمـة والنشر. دمشـق. سـوريا.
- المسـدي، عبـد السـلام. (1997). اللسـانيات وأسسـها المعرفيـة. د.ط. الـدار الوطنيـة للنـشر والمؤسسـة الوطنيـة للكتـاب. الجزائـر.
- الوعـر، مـازن. (1989). قضايـا أساسـية في علـم اللسـانيات الحديـث. ط1. دار طـلاس الترجمـة والنـشر. دمشـق. سـوريا.